مقدمـــة

جئنا إلى الحياة لنمضى فيها ما شاء الله أن نعيش، ثم تنتهى هذه الحياة، وتأتى أجيال جديدة، ويتابع الزمن دورانه، ومع دوران الزمان تتعاقب أجيال وراء أجيال.. والحياة ماضية فى طريقها.. الشمس تدور فى فلكها والكواكب التى تدور فى فلكها تدور، والشمس هى الأخرى تدور فى مجرتها.. وملايين المجرات تدور فى أفلاكها.. والحياة مستمرة.. رغم تعاقب الأجيال.. وتغير الحضارات وأنماط الحياة.. إلى أن يإذن الله لهذه الحياة أن تنتهى، وندخل دائرة أخرى إلى أن يحين اليوم الموعود.. يوم النفخ فى الصور.. وعودة الخلائق إلى حياتها الأبدية.

.. ونحن لانعرف ماهو الزمن.. أو هو على حد تعبير أحد علماء الفيزياء والحائز على جائزة نوبل (ريتشارد فيتمان) عندما سئل عن الزمن قال:

- نحن الفيزيائيين نتعامل مع الزمن كل يوم، ولكن لاتسألنى ماهو. إنه من العسير جداً التفكير فى ذلك.

والزمن هل هو هذا التيار المتدفق منذ الأزل؟ ولكن إلى أين؟

إن أنيشتين عندما جاء بنظريته النسبية.. اعتبر الزمن بُعداً، وهو الذى يكسب الأحداث معنى.. بعداً كالطول والعرض والارتفاع.

وعرفت الحضارات الإنسانية كيف تقسم السنة إلى فصول وأيام حتى يمكنها أن تسجل حركة الزمن، والتعامل فى حياتها من خلال هذا الاكتشاف، إلى أن عرف الإنسان كيف يقسم وقته بالساعات والدقائق والثوانى، حتى ينظم أمور حياته من خلال الزمن.

وقد أعجبتنى دراسة عن الزمن ترجمها الصديق فؤاد شاكر تحت عنوان (لغز الزمن).. والذى يتحدث فيها عن آراء العلماء فى (الزمن).. وكيف أن دورة الأرض منذ خمسمائة مليون سنة كانت تتم فى عشرين ساعة فقط، وبعد مرور مائتى مليون سنة أخرى من الآن سيصبح يوم الأرض ٢٥ ساعة.. ويرى أن قياس الزمن وتحديده بدقة -لدى العلماء المتخصصين - أيسر وأفضل من قياس المواد والأشياء، لأن الزمن لايملك جزيئات تتراقص فوق المكان ومن حوله، ولكن هل ذلك كله يفتح لنا كوة ولو صغيرة نتحس منها معرفة:

- ماهو الزمن؟

إن ساعات بيان الوقت ماهى إلا أجهزة وأدوات محددة القدرة، مهما بلغت دقتها ومزاياها.

يقول أحد العلماء المتخصصين فى ضبط وقياس التوقيت العالمى:

«إن الماضى لا وجود له إلا فى ذاكرتنا وكذلك المستقبل: لا

وجود له إلا فى توقعاتنا.. إن أقصى ما تقدمه الساعة (التى تبين الوقت) هو مقدار الزمن الذى انتهى من لحظة أو لحظات، فهى تعجز حتى عن تبيان الزمن اللحظى».

وتقول الدراسة:

«اليوم أصبح فى مقدور العلماء تقسيم الثانية إلى آلاف وملايين وبلايين الأجزاء. وقد يكون لديهم تصور عن بدء الزمن على أرضنا، وأنه لن يدوم إلى الأبد.. ويؤكد البيولوجيون لنا أن أجسامنا ذاتها هى فى الواقع جزء من الساعة الكونية، تماماً مثل أية ساعة صنعها الإنسان، أصبحنا نعرف أن الزمن الفيزيائى هو أمر نسبى لأنه يعتمد على أشياء تحدث وتحيط بنا».

* * *

مهما يكن من شىء فإن الزمن يمضى.. وتمضى معه أعمارنا.

ومن هنا من لم يفكر فيما مضى به من أحداث العمر.. فى الطفولة والصبا والشباب.. وأصدقاء العمر.. وما تركته الأيام على ذاكرته من أمال وآلام، وما تعرض له فى حياته من ساعات الشدة والحزن والألم، وساعات الفرح والسعادة والهناء.. وكل ذلك مضى.. وأصبح مجرد ذكريات!!

وهكذا يمضى بنا العمر.. فإذا الذى مضى مضى ولايمكن استرجاعه.. وأن مابقى من أيام العمر فى علم علام الغيوب.

ولنرجع إلى الوراء.. قبيل رحيل أعظم رسل الله عليه الصلاة والسلام إلى أكرم جوار.. لقد خرج مع مولاه (أبوموهبة).. فى ليلة حارة من ليالى الصيف إلى البقيع حيث استغفر لأموات المسلمين الراقدين تحت ثرى البقيع.. وقال لأبى مويهبة..

«إنى قد أمرت أن استغفر لأهل البقيع فانطلق معى».

وعند المقابر قال عليه الصلاة والسلام:

«السلام عليكم يا أهل المقابر.. ليهنىء لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها.. الآخرة شر من الأولى!».

والتفت إلى مولاه قائلاً له بعد أن استغفر لأهل القبور «يا أبا مويهبة.. إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة».

وأحس أبوموهبة أن الرسول ينعى نفسه، وأنه قد اقترب الرحيل عن الدنيا. فقال لأعظم رسل السماء.

- بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، والجنة.

ورد الرسول عليه الصلاة والسلام:

- لا والله يا أبا مويهبة.. لقد اخترت لقاء ربى والجنة وبعدها..

وفى نفس الليلة عندما عاد إلى بيته مرض عليه الصلاة والسلام.

وقد خرج الرسول الكريم إلى الناس أثناء مرضه يحدثهم عن اقتراب أجله، وقال فيما قال:

«.. بلغنى أنكم تخافون موت نبيكم. هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليهم فأخلد فيكم؟.. ألا وإنى لاحق بربى، وأنكم لاحقون به».

وقد شعر المسلمون فى أعماقهم بالحزن والخوف على نبيهم العظيم.. بل أن عمه العباس قص عليه رؤيا بأنه رأى القمر قد رفع من الأرض إلى السماء، ويفسر الرسول له ذلك بقوله:

- هو ابن أخيك.

تقترب منه ابنته فاطمة الزهراء.. فإذا هى تبكى، وتضحك بعدها.

لقد أبكاها ماسمعته من الرسول الكريم.

«إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة مرة وأنه عارضنى هذا العام مرتين.. وما أراه إلا قد حضر أجلى».

أما الذى أضحكها.. هو ماقاله لها والدها العظيم من أنها أول أهل بيته لحاقاً به.

وانتقل أعظم رسل السماء إلى رحاب ربه الكريم.. وكانت آخر كلماته:

- «بل الرفيق الأعلى والجنة».

حتى أن السيدة عائشة رضى الله عنها عندما سمعته فى المشهد الأخير من حياته يقول هذه الكلمات قالت:

«خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق».

وهاهو خليفته (أبوبكر الصديق).. عندما جاءه الموت، ورأت أم المؤمنين عائشة والدها وقد أوشك على الرحيل، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك مايغنى الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وسمعها أبوها فقال لها.. ليس كذلك.. ولكن قولى:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

وأما عمر بن الخطاب، عندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسى، فقد حمد الله على أن قاتله لم يسجد لله سجدة، وأوصى أن يختار المسلمون خليفة من بعده من بين ستة رشحهم للخلافة على وعثمان والزبير ابن العوام، وطلحة، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف.

وأن يكون من بينهم عبد الله بن عمر كشاهد وليس له من الأمر شئ.. وكان منتهى أمله فى آخر ساعات عمره أن يدفن بجوار حبيبه

المصطفى عليه الصلاة والسلام، وطلب أن يستأذنوا فى ذلك أم المؤمنين عائشة.. وعندما علم أنها أذنت بذلك قال الحمد لله.. ماكان شىء أهم إلىّ من ذلك.

وتروى الروايات التاريخية أنه عندما حوصر عثمان رضى الله عنه، ومنع عنه الثوار الطعام والماء، أنه شاهد الرسول عليه الصلاة والسلام فى منامه يسقيه، فأدلى إليه بدلو فيه ماء فشرب منه عثمان، أو على حد تعبيره فشربت حتى رويت، حتى أنى لأجد برودة بين ثديى وبين كتفى.. وقد استشهد ثالث الخلفاء فى نفس اليوم، وكانت آخر كلماته عندما ضرب بالسيوف:

«لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، اللهم إنى استعديك عليهم، واستعينك على جميع أمورى، وأسألك الصبر على ما ابتليتنى».

وعندما اغتاله عبد الرحمن بن ملجم وكان أحد خوارج الإمام على رضى الله عنه، أوصى الإمام وصيته لأولاده، ثم أخذ يردد: لا إله إلا الله إلى أن فارق الدنيا.

وفى كتاب الإحياء للإمام الغزالى الكلمات الأخيرة لهؤلاء الذين حضرهم الموت من الخلفاء والصالحين.. ومما رواه أن معاوية ابن أبى سفيان لما حضرته الوفاة قال: اقعدونى، فأُقعد وجلس يسبح الله تعالى ويذكره، ثم بكى وقال:

- تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط، ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه وقال:

- يارب ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى، اللهم أقل العثرة، واغفر الذلة، وعد بحلمك على من لم يرج غيرك، ولم يثق بأحد سواك.

وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه:

- كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟

قال: تجدنى كما قال: الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ومات.

ولما اقترب وقت موت عمر بن عبد العزيز قال:

اجلسونى، فأجلسوه فقال: أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت؟ ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحدَّ النظر، فقيل له فى ذلك فقال:

- إنى لأرى حضرة ماهم بأنس ولا جن ثم قبض رحمه الله.

وحكى عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول:

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

- يامن لايزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.

وكان المعتصم يقول عند موته:

- لو علمت أن عمرى هكذا قصير مافعلت.

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته، فقيل له:

- لابأس عليك يا أمير المؤمنين

فقال: ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة.

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر إلى صناديق لبنيه:

- من يأخذها بما فيها ليته كان يعره.

وقال الحجاج عند موته:

اللهم اغفر لى فإن الناس يقولون إنك لاتغفر لى.

فكان عمر بن عبدالعزيز تعجبه هذه الكلمة منه، ويغبطه عليها.

ولما حكى ذلك للحسن قال: أقالها، قيل نعم. قال عسى!

ودخل المزنى على الشافعى - رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له:

- كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

فقال:

أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملى

obeikandl.com

ملاقيا، وبكأس المنية شاربا، وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأُهنيها، أم إلى النار فأُعزيها ثم أنشأ يقول:

ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى

جعلت رجائى نحو عفوك سلما

تعاظمنـــى ذنبـى فلمـا قرنتـــه

بعـفـوك ربى كان عفـوك أعظما

فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل

تجـود وتعفـــو فـيـه وتكـرمـا

ولـولاك لـم يغـوى بإبليـس عابـد

فكيف وقـد أغـوى صفيك آدمـا

و.. ما أكثر الكلمات التى تلخص أن الحياة لاقيمة لها، تلك الكلمات التى قالها أناس كانت لهم أدوارهم فى الحياة، وكانوا على أعلى سلم السلطة أو الجاه أو النفوذ أو العلم... وقد وجدوا أن الحصيلة هى أن الحياة تمر بسرعة مذهلة.. تنقضى أيامها.. وتمر لياليها.. وينتهى ما فيها من متع وأحداث وآمال وآلام.. ولايبقى إلا ما قدم الإنسان من صالح الأعمال.

وها نحن نبحر سويا فى رحلة تأملية حول الحياة والأحياء،

وماوراء هذه الحياة، من خلال قراءات متعددة فى العلم والفلسفة والفكر والدين، ومن خلال خبرات علماء عاشوا للعلم وبالعلم وأدباء قضوا حياتهم فى التعبير عن الحياة، وفلاسفة أجهدهم البحث فى الحياة وماوراء الحياة، وكان الشاطىء الآمن عند نهاية الرحلة هو أن يلوذ الإنسان بالإيمان. . فالإيمان هو الذى يهدى الإنسان طريق الرشاد.

والإيمان هو الذى يجعل الإنسان يعيش لهدف، ويموت وهو مطمئن البال، بأنه فى رحاب عدالة الله، ورحمته التى وسعت كل شىء. .

وعلى شاطىء الإيمان يطمئن القلب، وتسود النفس السكينة مهما كانت أمواج المحيط من أمامه هادئة أو متقلبة. . لأن النفس بيد خالقها ومبدعها. !

والإنسان على ضعفه هو سيد هذا الوجود. . ولكن عليه أن يتناغم معه، ليمكنه أن يتعايش فيه. . ولا مظلة له. . ولا أمن له من عوادى الأيام. . وتقلبات الحياة إلا أن يلوذ بحصن الإيمان. . يومها يرى كل شىء جميلاً مهما كانت الظروف. . ومهما كانت أشواك الطريق.

مأمون غريب